٥. مؤنس ودوائره

(١)

ثلاثة أيام تفصل مؤنس عن محاضرته المخططة في أثينا. التحضير لم يكن مشكلة أبدًا بالنسبة لمؤنس، فالمحتوى الذي يقدمه متكرر وعائم بشكل لا يصدق رغم نجاحه المضمون. كل ما يحتاج إليه أن يعيد صياغة محاضراته السابقة بشكل مختلف مع مجموعة من الجمل البراقة وبعض من أقوال الحكماء والنشاطات الفارغة التي يحبها الحضور الذين أتوا ليمرحوا.. خلطة تنميته البشرية مكتملة تقوم على قاعدة "بقدر زيادة "الهلس" زادت جاذبية التدريب مهما كان عنوانه برّاقًا". بدأ مؤنس التحضير برسم دائرة سماها دائرة الحكمة ثم قاطع معها دائرة أخرى سماها دائرة البؤس، ثم تخيل أن دائرة أخرى تسمى دائرة العطاء فرسمها وأضاف بعدها دائرة رابعة سماها دائرة الأنانية.. تأمل دوائره المداخلة ثم قرر أن الخلطة يجب أن تحتوى دائرة أخيرة ويجب أن يكون اسمها

الحب. ستكون المحاضرة عن نقطة التقاء الدوائر الخمسة لكن المعضلة العظمى التي الآن هي اسم تلك المنطقة..
وهو ببساطة لا يعرف..

(٢)

يُصرّ مؤنس في محاضراته أن الصدفة كلام فارغ، وأنه "لا مكان للصدفة في امتزاج الطاقة الإيجابية بالرؤية المستقبلية المبدعة لرواد الأعمال وموجهي الحياة..". ظاهرٌ يوحي بالعمق والحكمة بو باطن هو "هذي مقنع" كما لا يعلم أحد إلا ندرة قد تحاول البحث الموضوعي تدرب على التعامل معهم بسياسة الصوت العالي أو "الطبل البلدي" كما يطلق مؤنس عليها.
الصدفة واقع، وما تستحضره من ذكريات وأحداث هو ما قد يصبغها بقناع عمق زائف أو حتى صبغة الماورائيات. لم يزر ذلك اليقين المعاكس ذهن مؤنس حتى قاطعت رسالة "ريما" التي وصلته على لوحه الرقمي جملة في مشهد في حلقة المسلسل الذي يشاهده منتظراً طائرته الأولى من أمريكا إلى بريطانيا في طريقه لليونان.

"منذ ألاف السنين كنت أعذب روحًا في الجحيم، أنت تعرف أنني أتفنن في ابتكار وسائل تعذيب تليق بكوني الشيطان.. كنت أعذبه يوميًا لمئات السنين، وكان يصرخ طلبًا للرحمة وأن يتوقف العذاب ولو للحظات، وبالطبع لم آبه لأي من صرخاته.. حتى جاء يوم وأصبت بالملل.. لم أذهب إليه لبضعة أيام، وعندما عدت إليه لتعذيبه بعد تلك الفترة وجدته يبكي قبل أن أبدأ ويصرخ فيّ "أرجوك.. لا تتركني وحدي مرة أخرى، وجودي بدون ما تفعله كان أقسى علي من العذاب الذي تسومني إياه كل يوم".. تأملته للحظات ثم تابعت ما أفعل"

من مسلسل لوسيفر - الموسم الثالث

قاطعته رسالة "ريما" المشهد بعد غياب لبضعة أشهر.. هي فقط تقول "كيف الحال..؟". مؤنس يعلم أنها ستطلب شيئًا بعد "كيف الحال..؟" من منطلق يقينها أنها تسيطر عليه بدائرة الحب التي منحها إياها، الدائرة التي تقبل كلاهما مراده منها وإلّم يفصح عنه.. وضعته "ريما" في منطقة رمادية اختارتها له وتعود إليها بعد كل خذلان في بحثها عن حب يناسبها خارج دائرة حب مؤنس الافتراضي لها والذي لا تريده ولا تحترمه لكنه مفيد في بعض

الأحيان. منطقة قبِلها هو متطلعًا للوصول لما تخلّقت تلك الدائرة في نفسه من أجله.

مؤنس هذه المرة مع عودتها عقب فترة غيابها الأخيرة لم يبك كالمعذّب، ولم يستجد ألا تغيب عنه ثانية وإلّم يكن قد نال بعد ما يريده..

ومسح الرسالة.

(٣)

عرف مؤنس في طائرته الأولى متجها لمحاضرته أن السيدة التي ستجاوره هي أجمل من رأى رغم سنوات عمرها التي تجاوزت الخمسين ببضع سنوات. الوجه مجرد آلة طباعة لتفاصيل ما ترسمه عليه الروح من رونقها أو خبثها، والعين تنال فرصة واحدة فقط في نظرتها الأولى لتدرك فيها تلك ظل الروح على الملامح. مؤنس مُنح نظرته الأولى فرأى تفاصيل روح المرأة التي ستجاوره في الطائرة طوال عشر ساعات هي المسافة بين "نيو أورلينز" و"لندن" في طريقه إلى أثينا. أيقن صحة إحساسه مع تجاذبه أطراف الحديث معها، ثم نسجت أطراف الحديث حوارًا عرف فيه أنها راهبة ومدرسة في مدرسة الكنيسة الكاثوليكية، تعيش وحيدة

في "ساكرامنتو - أمريكا" وتتجه لبلدها "برشلونة" لحضور زفاف أختها. حديثها وأراءها المتزنة ورؤيتها لتطور علاقتها بالرب وعلاقتها بطلابها وثقافتها المتسعة ألقى في نفسه معنى جديدًا للحكمة جعله يتجاهل لمرة من المرات القليلة رغبته الفطرية في الإدلاء بدلو كلام فارغ لا يعدو عن سفسطة معنى بسيط ويستمع إليها فقط بكل جوارحه.

(٤)

"البؤس دائرة مكتملة.. فالمجتمع يصب بؤسًا فيمن فيه، ومحيطك من البؤساء يصب الكثير في بؤسك لدفعك للتوحد معه في بؤسه أو على الأقل مشاركته فيه.. لا يوجد بائس يبحث عن حل، لأن الوصول لمرحلة البؤس يولّد شعور الضحية الذي يتحول لإدمان..
البؤس يتوحد لأن مصادره متشابهة.. كمثال: الندم أو الإحباط.. القرارات الخاطئة التي تؤدي إلى اختيارات يتطلع الإنسان إلى خالفها بفطرته المتطلعة لما لا يملك فيتوهم أنها اختيارات خاطئة"

هل كرر مؤنس كلمة بؤس كثيرًا في مقدمة محاضرته التي كتبها أثناء انتظاره للقطار المتجه لفندقه في أثينا..؟ تساءل للحظات ثم

طوى صفحة مفكرته وفتح هاتفه المحمول باحثًا عن اسم الراهبة في صفحات التواصل الاجتماعي..

حديثها عما تحاول فعله وإيصاله للأطفال التي تدرس لهم الإسبانية واللاتينية والإنجليزية.. إحباطها من تغيّر مبدأ التعليم إلى عملية حشو تفاصيل لا تُشكل شخصية المتعلم بقدر ما تزيده بؤسًا وبعدًا عن الهدف الأسمى للتعلم.. رأيها في فكرة التعلّم وكيف أنه الفارق الجوهري بيننا وبين الملائكة والشياطين أوقع بينهما رابطًا لم يتخيله.. رابطٌ تعاظم مع حديثها عن نظرتها للدين والإيمان والرب.. رابط أسال دمعة خفية من عينه عندا استأذنته لتبارك طعامها قبل أن تتناوله حتى أنه ظل يتأمل وجهها الهادئ أثناء نومها في صمت. أُخذ مؤنس بحديثها حتى أنه نسي أن يسألها عن كيفية التواصل معها بعد أن احتضنها مودعًا في مطار لندن حيث افترقا..

لم يكن يعرف إلا اسمها "جورجينا بيرس" وأنها جذبته بدائرة أخرى لم يكن يتوقع أنها حقيقية.. دائرة العطاء التي قالت عنها أن "الأمم والحضارات تُبنى بوجود ذلك الجيل الراغب والمستمتع بفكرة العطاء بدون مقابل..".

وعليه فإن البؤس قد يكون اختيارًا..
هكذا قالت "جورجينا"

(٥)

ظاهر مؤنس أنه شخص ناجح، ذو دائرة اجتماعية متسعة، يحبه الكثيرون ويستمتعون بمحاوراته وقدرته على المزاح. أقنع نفسه بأنه شخصية قيادية غير مسبوقة بعد قراءة كتاب "السر" الذي فتح عينيه على الحل السحري لكل مشاكل البشرية في توائم تام مع استراتيجية "الاستسهال" التي يتبناها مؤنس فيما يقدم.. لكن ما يمر به الآن مختلف.

بقدر ما آمن مؤنس بأن الابتعاد عن "السلبيين" كما يصفهم هو "جوهر السعادة الذاتية والاتزان النفسي" كما كان يحاول إقناع مريديه من طلبته، بقدر ما أيقن بأن التعميم الذي يعتنقه يخلق دائرة أنانية غير محدودة. دائرة تشتهي من المشاعر والبشر جوانبهم المشرقة أو التي يريدها فقط، أيًا كان مستوى قربهم من صانع الدائرة.

إيمان مؤنس بتلك المبادئ ما كان ليضر أحدًا لولا أنه اختار أن ينال من دائرة الحب جانبها الممتع فقط نخاض عشرات

التجارب التي تطلع فيها لرعشة الحب الأولى بدون أي التزامات.
نهل مؤنس من علاقات متعدد كثيرًا من المتع التي أنهاها بِطُرقٍ غريبة أحيانًا حتي أنه أنهى أحد علاقاته لمجرد بعد مكان سكن فتاته عنه دائرة سكنه..

لذلك تعلق بـ"ريما" التي لم تتجاوب معه إلا في حدود ما تريد هي فلم "تَبْرُم على مَبْرُومِه" كما يقول العامة، وربما أيضًا لذلك أحس بكثير من الانهزام لأنها تنال دومًا ما تريد منه ثم تختفي دون أي إشعار ولا تعود إلا عندما تكون في حاجة لخدمة جديدة مستغلة معرفتها – التي افترضها – بغرضه من تلك العلاقة..

نهض فزِعًا من قيلولته في فندقه الذي يقع في حي متوسط بجوار وسط مدينة أثينا على حلم ربطه فورًا بدائرة الحب التي كان يفكر فيها قبيل نومه مباشرة.. المحاضرة بعد غد، ولم ينته من تحضيرها بعد.. المشكلة يزداد تيهًا مع كل تطور في الخوض في محتوياتها التي بدأها بفكرة "دوائر الحياة، لكنها انتهت به إلى خوض كثير من الحقائق مما جعله مرتبكًا بحق..

يستخدم مؤنس في العادة أحلامه المحورة بتصرف في محاضراته كنوع من بث الأمل، لكن الحلم الذي هاجمه الآن وضعه أمام

حقيقة لا يستطيع وضعها في محاضرته التي تعتمد على كثير من الفنتازيا المطعمة بقليل جدا من الحقائق.. و"كثير من الحقائق يفسد الطبخة لذلك يجب تجنب الحديث عن الخبرات السيئة لأنها لا تصلح كمادة خام لما نبيعه" كما نصحه أحد معلميه في شركة سابقة. حلمه الذي خرج منه للتو لا يمكن حكيه إلا ربما لشخص في نقاء "جورجينا" التي ستتفهم كونه خاطئًا يبحث عن سكينة الاتساق مع الذات خاصة إن فهمت مضمون الحلم.. تخيلها معه كي يكتب في مفكرته ما يمكن أن يخبرها به يومًا:

" يراودني هذ الحلم الغريب منذ فترة.. أقف أمام "ريما" وأنا أعلم ما أريم منها للبدء في خطة الخروج من تلك العلاقة، أقف موقنًا أننا نتعامل مع بعض بذات الأسلوب.. فهي تريد حلب ما أستطيع منحه لها بعلاقاتي وخدماتي غير المحدودة وأنا أريدها على الفراش.. في اللحظة التالية من حديثي معها أفقد السيطرة وأقضي حاجتي على سروالي فجأة، لكني للعجب لا ألتفت للأمر وأتابع حديثي معها ثم أنتقل لأخرى وآخرين.. الأعجب أنني أعرف أن سروالي يحوى الكثير مما قضيته فيه لكني أتحرك بشكل عادي جدا من وجه لآخر.."

ستخبرني "جورجينا" أن ذلك اعتراف ضمني بطبيعة حياتي التي اخترتها، اعتراف يستحق أن يضاف لدائرة الأنانية أو يخلق دائرة أخرى قد تكون السادسة..

دائرة الانحطاط..

(٦)

"البؤس، الحب، العطاء، الحكمة، الأنانية.. قد لا تكون الدوائر كلها من مصدر واحد هو ذاتك لكن كما ترون الخمسة دوائر يجب أن نتقاطع وقد تظهر دائرة سادسة أيضا وهي الانحطاط كامتداد لدائرة الأنانية عندما تسمو بوضاعتها.. فلنتوقف لساعة واحدة لتناول الغذاء ثم نعود لختام محاضرتنا الذي سنعرف فيه اسم تلك المنطقة التي نتقاطع فيها "دوائر الحياة"".

(٧)

- أنت بربري..

يقولها ذلك الرجل البائس في اليوم التالي للمحاضرة وأنا أصعد إلى مزار الأكروبوليس الشهير على جبله الأشهر في أثينا فأتوقف قليلا لأنظر إليه.. بائس يمسك بآلة تشبه العود لكن ذراعها أكثر طولًا، ويعزف عليها لحنًا ما لقاء بضع سنتات يلقيها إليه العابرون.

ملابسه قذرة، رائحته متسقة تمامًا مع ملابسه وقدميه السوداوين وأظافره المتكسرة وصوته المشروخ الذي هتكه الدخان والخمر. أنظر إليه ثم أتأمل الأشجار المتصاعدة مع الطريق حتى تلتقي بالسماء الصافية في أفق تقف فيه ثلاث فتيات في عمر الطفولة يرتدين قميصًا ورديا عليه شعار مدرسة ما ويجمعون معلومات من السياح يبدوا أنها لمشروع دراسي يقومون به. الرجل لاحظ وقوفي فأوقف عزفه وبصق على الأرض ثم أشار إلى صارخًا بصوت مرتفع وإنجليزية بشعة:

- نعم أنا أحدثك أنت... أنت بربري..

أنا بربري..؟ ربما يكون على حق. لو كان يقصد وصفًا على مستوى اللون فأنا أسمر أصلع الرأس تمتد بطني أمامي بكرش صغير وهذا قد يكون تصور ما بقي له من عقل عن البرابرة.. أما إن كان يقصد الوصف السلوكي فأنا كاذبٌ مدع علمٍ وإن حملت عشرات الشهادات العلمية والعالمية ومئات الشهادات مجهولة المصدر في التنمية البشرية التي أحاول أن أثبت بها دائرة حكمتي. ابتسمت عندما تذكرت صديقي في المدرسة الثانوية الذي تلقى ما

نعتبره في مصر سبابا ويُذكر فيه "عضو لأمه" في سبة من زميل آخر فنظر زميلي الأول في بلاهة ورد:

- لا..

فقط "لا".. وهذا ما سأفعله.. لكني ضحكت قبلها ضحكة طويلة ساخرة، وبصقت أنا الآخر على الأرض وقلت :

- لا..

(٨)

" القاعدة هي الانطفاء وليس التوهج، هذا عكس ما كنت سأقوله لو ألقيت تلك المحاضرة منذ بضعة أيام. توهجي كان انطفاءً لي ولآخرين، أنا الآن منطفئ وإن ظهرت متوهجًا. وكان حظ محاضرتكم أن جاءت في المرحلة الانتقالية نحو محاولة نجاة من توهجي المزيف.. تتقاطع دوائر الحياة الخمسة، لأن الحب، والعطاء، والأنانية، والحكمة والبؤس عندما تتداخل في حياة ما يجب أن تتقاطع فيما بينها في منطقة مشتركة.. حقيقة هندسية أعرفها كمهندس سابق، لكني بصفتي التي تعاقدتم معي لأحاضركم بها أجزم أنني لا أعرف.. لا أعرف ما يمكن أن أدعو مكان ذلك الالتقاء.

ربما تستطيع جورجينا إجابتي، لكني لا أستطيع الوصول إليها.. ربما يتمكن أحدكم من حله.."

شاهد مؤنس فيديو ختام المحاضرة الذي أرسله أحد الطلاب إليه مرفقًا إياها برسالة قصيرة مفادها أنها كانت أكثر المحضرات إمتاعًا في حياته. قاطعت خواطره جملة شريف الذي تطوع بتوصيله من المطار لمنزله في القاهرة:

- إيه يا عم الكلام الكبير دا..؟ أنت قلبت عميق ولا إيه..؟

ابتسم مؤنس ولم يعلق، فتابع شريف مربتًا على مقود سيارته الجديدة:

- إمبارح استلمت عزيزة، وجه في دماغي حاجة كدا وأنا سايقها وراجع من اسكندرية.. أول مرة أسوق جيب، ودا خلاني حاسس إني متميز. تخيل بقة لما تآخد منصب أو تبقى غني ممكن تحس بإيه..؟ ممكن تحط دا في محاضرة من محاضراتك الجاية.. تفتكر ممكن يحس بإيه لما يسوق عربية تخليه مرتفع عن بقيت البشر..؟

ابتسم مؤنس ولم يعدل وضعية رأسه على مسند الكرسي مغمضًا عينيه..

- هايحس إنه قاعد في كرسي السواق، ماسك الدركسيون وبيسوق عربية.. بلاش أفورة.

تمت...